حركة البناء الوطني
NATION BUILDING MOVEMENT
Syrian Nation Builders

# تقرير جلسة تحولات الهوية العمرانية لمدينة دمشق

تناولت جلسة يوم الأربعاء 28 آب 2019 من جلسات برنامج الأربعاء السوري موضوع "التحولات في الهوية العمرانية لمدينة دمشق" لمناقشة ما طرأ على هوية مدينة دمشق من تغيرات في العمران والتنظيم تبعاً لمرور الزمن والازدحام وعدم تطوير المخططات التنظيمية لاحتواء المناطق التي نشأت مؤخراً، وكذلك تبعاً للحرب وما لحقها من دمار وأزمات سكنية ساعدت في تشويه الهوية العمرانية لهذه المدينة وكثير من المدن السورية العريقة الأخرى التي بدأت تفقد هويتها شيئاً فشيئاً.

بدأت هذه الجلسة بأربع فقرات تقديمية مطولة تضمنت شرحاً تاريخياً عن مدينة دمشق وتطور شكل العمران فيها، وكذلك مراحل تخطيط المدينة وأحيائها وتوسعها مع السنوات. وعرضاً حول التشوه البصري الذي أصاب الخط العربي المستخدم في الطراز العربي العمراني القديم. قدم هذه العروض والشروحات مجموعة من المختصين والباحثين وضيوف جلسات الأربعاء السوري، لينطلق بعدها النقاش ويطرح فيه عدد من الأفكار أهمها:

- فترة التطور العمراني لمدينة دمشق مرت بعدة مراحل وعناوين، فدمشق كانت مدينة آرامية ثم يونانية، ثم رومانية وبيزنطية، ثم أموية، ومدينة خاضعة للاحتلال العثماني ثم للانتداب الفرنسي، وهناك فترة مخطط دمشق عام 1937، ومخطط إيكوشار 1968، ومخطط تطور مدينة دمشق عام 1984 ثم المخطط التوسعي بين 2009 إلى 2012.
- حين كانت دمشق مدينة آرامية، كان فيها القلعة والتلال، في الفترة اليونانية اتسمت بالتقسيم الشطرنجي، وبدأت تظهر معالم المدينة، وفي الفترة الهلنستية والرومانية ظهرت الأحياء داخلها بشكل مفصل أكثر مع الطرقات. أما الفترة البيزنطية فقد أعادت انتماءها إلى المنطقة المشرقية وخلصتها من التقسيم الشطرنجي قليلاً، في القرن الثامن عاشت عهداً ذهبياً في ظل الخلافة الإسلامية كعاصمة للحضارة الأموية، محافظة على طابعها المشرقي، ثم تراجعت ثانية عندما انتقلت فترة الخلافة إلى بغداد في العصر العباسي والفاطمي.
- كان التوسع خارج دمشق يتمثل حينها بالبوابات وجهتها، حيث كانت تحدد محاور رئيسية باتجاه أقاليم مجاورة، وكان ازدهار دمشق في العهد السلجوقي حيث تم تحصين الأسوار وفتح أبواب جديدة وهنا تم التوسع خارج أسوارها وفق محاور الربط الإقليمية.
- في الفترة الأيوبية استمر تحصين السور كونها فترة حروب وأُنشِئت قلعة دمشق، بينما في الفترة المملوكية ساد الاستقرار وتراجعت أهميتها.
- في العهد العثماني فقدت القلعة والسور وظيفتهما الدفاعية وبدأ الانتشار السكاني خارج دمشق يكثر.
- التوسع خارج دمشق بدأ بظهور حي الميدان ومنطقة الصالحية. وفي القرن الرابع عشر توسعت أكثر وظهرت منطقة ساروجة والقنوات وفي القرن السادس عشر اتصلت هذه الأحياء مع دمشق.

- كان مخطط "دانجيه" نقطة مهمة في تاريخ دمشق فقد كان أول مخطط تنظيمي لدمشق عام 1938 وتضمن تقسيم محافظة دمشق إلى تسع مناطق عمرانية.
- عمل إيكوشار على مخططين، الأول هو مخطط دانجيه الذي خطط ضمنه منطقة الحريقة ومن ثم دمرت بالكامل وأعيد بناءها في النظام العثماني بشكل مشوه وغير منسجم أبداً، وأيضاً خطط إيكوشار منطقة سوق الخضار وغيرها، لكن في مخططه الثاني عمل إيكوشار بنصائح أشخاص محيطين به وكان متضمناً مناطق عديدة منها منطقة البحصة وساحة المرجة التي كان يفترض أن تكون مركز المدينة كونها احتضنت أحداث كثيرة.
- كان هناك معالجات مجزأة لحالة التوسع السكاني منذ السبعينات وليس مخطط إجمالي أو شامل لدمشق وريفها.
- مخطط عام 2009 – 2012 هو مشروع دمشق الكبرى وهو مجموع دراسات استشرافية وليس مخططات تهدف لإعادة دراسة مصور عام لمدينة دمشق ومحيطها الحيوي لتحديد استراتيجيات التطوير المطلوبة.
- لم يكن مشروع توسع دمشق ناتجاً عن دراسة واقعية ولم يقدم دراسة لمعالجة وضع العشوائيات التي تمثل 40% من مساحة دمشق.
- تفتقد المخططات اليوم للمعلومات الإحصائية التي تعتبر أساس تنفيذ المخطط التنظيمي.
- لا يوجد أي خطة لتعزيز البنى التحتية اللازمة للتوسعات التي طرأت على دمشق.
- المخططات التنظيمية كلما تقدمت زمنياً باتجاه واقعنا الحالي تبتعد فعلياً عن واقع دمشق وهويتها التاريخية.
- مدينة دمشق امتلكت هويتها الحقيقية في مرحلتين فقط، مرحلة الخلافة الأموية، ومرحلة ما بعد الاستقلال.
- ما يفرضه التطور يأتي على حساب البيئة والإرث الحضاري لمدينة دمشق.
- يجب أن نقرأ ماضي دمشق كي نتمكن من توظيفه في صنع المستقبل.
- الأصل هو النظر للمستقبل ضمن حاضر متسارع حاد التبدلات، هذه من صفات عيش الحداثة وصفات العصر الحديث. وإن أي تحول إنساني واسع على الجماعات البشرية ويحتوي في طياته أفق مديد، يجب دراسة ما يتركه من آثار اجتماعية وسياسية واقتصادية وبيئية، أي يجب دراسة كافة الارتدادات الشاملة لهذا التبدل على المجتمع.
- تاريخ هذه المنطقة ليس تاريخ سوريا فقط وإنما تاريخ الحضارة الإنسانية كاملة. لأن سوريا لم تكن مجرد دولة عادية وإنما هي ملتقى الحضارات، وهي مركز العالم الجغرافي والهندسي ومركز الخطوط التجارية، ونحن مثقلين بهذه الحضارات القديمة، لا نستطيع تجاوزها لأنها موجودة في جيناتنا.
- العصر الحديث هو عصر العولمة والليبرالية الجديدة، عصر التوسع التجاري هذا قد يكون سهلاً على أوروبا وأميركا لكنه ليس سهلاً علينا.
- تحطمت حضارة بغداد والموصل وحلب، والقدس استبيحت، بيروت تهدمت أيضاً وأعيد بناؤها، ولم يبق إلا دمشق. ما السبب وراء تدمير كل هذه الحضارات؟ لماذا يقتل كل هذا التراث؟

- المدن بحاجة أن تتجه نحو صياغة جديدة وتحتاج هوية جديدة، وهذا هو المسار الذي تتجه فيه الحضارات.
- العلاقة بين المدينة وسكانها ديالكتية جدلية، فالإنسان يبني المدينة وهي تعيد بناءه. كما يتشكل فيها علاقات من أهمها علاقات الجوار.
- مفهوم الجوار يختلف في العلاقة بين المدينة التي تمتد عامودياً (طابقية) وبين المدن التي تمتد أفقياً.
- الأبنية الشاقولية سوف تغير تركيبة المجتمع وبالتالي تغير هويته، فهل نحن مستعدون لهذا الأمر؟ يجب أن نكون واعين جداً لهذا التغير.
- نحن بحاجة للعمل الجماعي، أن نفكر كمجموعة وليس كأفراد وأشخاص بعد الحرب كي نبني المستقبل.
- إن المشكلة الأساسية هي عدم وجود مواطنين يطالبون بساحات مرتبة وأبنية مريحة للنظر وشوارع تتيح الحركة بأريحية، وعدم تعبير المواطنين عن رأيهم واحتجاجاتهم.
- دمشق الآرامية أصبحت مدفونة تحت مدينة دمشق اليوم، لذا فحين نتحدث عنها فنحن نتحدث عن شيء زال ولم يعد هناك أي أثر له.
- دمشق ليست فقط الغوطة وليس فقط الشام القديمة، وإنما هي مدينة تتعدد جذورها وتمتد ويجب أن نجد المنطق الذي يجمع كل هذه الجذور والأطياف.
- حاولت المرحلة العثمانية تمييز الدمشقيين عن غيرهم لذا هناك حالة تخصيص لأهل دمشق أورثتهم تعصباً يضر بهويتها.
- لا يجب أن تسمى المناطق بأنها مناطق راقية، يجب ان نسعى لتخديم جميع المناطق بشكل متساوي لتسمى مناطق مخدمة، ونترك صفة الرقي للإنسان كي يستحقها.
- لماذا نهاجم الأبنية الشاقولية مع أنها حل مناسب لاستيعاب العدد الأكبر وتأمين الخدمات لها وتحفظ حسن الجوار؟ لماذا نتمسك بأشكال عمرانية لم تعد تلبي متطلبات الحياة المعاصرة.
- نسيج دمشق ليس نسيج عمودي، وهذا الشكل من البناء سوف يفتت النسيج الاجتماعي، بالمقابل قالت نظرية ما بعد الحداثة بأنه بالإمكان الجمع بين ما يحافظ على الهوية والتراث وبين التكنولوجيا والتطور والوسائل الحديثة.
- هناك سيكولوجيا خاصة بالعمارة لها صلة مباشرة وأساسية بالهوية.
- كل المشاريع التي توضع على المخططات اليوم ليست إلا تجارة عقارية وليست بناء مستقبل لسوريا.
- هذه المشاريع غير الإنتاجية تتسبب في حجز أموال كبيرة بشكل غير فاعل ولا تؤسس بنى تحتية ولا تبني حتى مدارس مع أنها أمر أساسي نحن بحاجة إليه.
- المخططات الحالية لا تأخذ بعين الاعتبار الحياة اليومية للبشر بشكل عادل وصحيح ولا تحسب المسافات التي يقطعها الناس والهدر في الوقت والموارد بسبب سوء التنظيم.

- إذا لم تمنح إعادة الإعمار ثقة للناس باستعادة الملكية وتصليح الأضرار الواقعة عليها من خلال تأمين المخططات التنظيمية فهذه ستكون مخاطرة سياسية كبيرة لأنها ستمنع وجود استثمارات مجدية قائمة على الثقة.
- من ساهم بتشويه الهوية البصرية هو نقابة المهندسين ومثال على ذلك مشروع دمر الذي كان سابقاً يأخذ بعين الاعتبار المساحات الخضراء والتنظيم السكني ون ثم تحول إلى شكله الحالي المليء بالتعقيدات.
- المواد الاسمنتية من أكبر التشوهات التي دخلت لتشويه العمارة الدمشقية، وهي انتشرت بسبب رخص ثمنها وتوفرها.
- دمشق كانت آخر حاضرة على خط الحجاز ومن هنا بدأت تأخذ قوتها، الإشكالية التي بدأت في السبعينات هي انها أصبحت عاصمة تضخم فيها البناء المؤسساتي وبالتالي أصبح لها قدرة استقطابية وجاذبة للناس، إذاً فمشكلة دمشق الدائمة ستكون الكثافة السكانية الهائلة وهي مشكلة بنيوية ستضطرنا لتغيير الشكل الوظيفي لدمشق.
- هناك حالة تجاهل كبيرة للتشوهات السرطانية المحيطة بدمشق والتي تتمثل بالعشوائيات والتي كان التمايز بين الدمشقيين وسواهم أحد أسباب حدوثها وتضخمها وكذلك سهولة البناء الاسمنتي.
- هناك فرصة هامة في مستقبل سوريا وخاصة مرحلة إعادة الإعمار بتعزيز باقي المدن خاصة ريف دمشق لتصبح مراكز إدارية تحمل بعضاً من العبء.
- لا دور حقيقي لنقابة المهندسين في التخطيط المدني وإنما تبنى المخططات التنظيمية بشكل غير علمي وغير مستند إلى إحصائيات، القرار التخطيطي يجب أن يأتي بناء على جملة معطيات منها اجتماعية واقتصادية وسكانية وديموغرافية وغيرها، ولكن في دمشق أصبح التخطيط العمراني يتبع المخالفات ويتشكل بناء عليها لاحتوائها.
- لا تتعارض الحداثة في البناء مع التراث، يمكن بناء الضواحي مثلاً، هناك تجارب عالمية ممكن الاستفادة منها لتنظيم السكن، حلول السكن في سوريا ليست معجزة ويمكن حلها.
- يجب أن نستفيد من تجارب الدول التي تبني بشكل يحقق الاستدامة وأقل صرف للطاقة والموارد.
- المحطات الأساسية للتغيرات العمرانية في بنية المدينة على مر الزمان كانت نتيجة للاحتياجات العسكرية، من السور إلى بناء القلعة في عصر المماليك إلى شق شارع بغداد.
- أدت الحروب المتتالية إلى تغيير النسيج المحلي نوعاً ما وتشوه العمارة، وأصبح هناك ترييف لدمشق حيث فقدت صفة المدينة في بعض المناطق بينما تم تمدين الريف حيث انتقل كثير من سكان دمشق إلى الأرياف أو الضواحي.
- دمشق تحتضر من خلال نهر بردى، لأن المواد الملوثة تخنق تربة الغوطة ولاحقاً سوف تتسرب إلى المياه الجوفية.
- كل واحدة من المداخلات الطويلة في مقدمة الجلسة كان يمكن لها أن تكون محاضرة كاملة تحت عنوانها لأنها مواضيع واسعة ومتشعبة وخاصة تاريخ دمشق والتشوه البصري في العصر الحالي وغيرها.

- الأفضل للجلسات أن تكون ذات طابع حوار جماعي دون مداخلات تلقينية طويلة نكون فيها مستمعين فقط، خاصة وأن السرد التاريخي طويل جداً وفيه إسهاب قد يجعل المستمع يتشتت.

يذكر أن هذه الجلسة تميزت بحضور العديد من المؤرخين والمختصين الذين أغنوا الحوار بمعلومات تاريخية قيمة وجميلة حول تاريخ دمشق وأيام ازدهار حضارتها، ومن خلال النقاش اقترح الحضور عدة عناوين ممكنة يمكن إفراد جلسات كاملة خاصة بها مثل الجانب الجمالي للعمارة الدمشقية والهوية البصرية ومثل الخط العربي أو حوارات تركز على التشوهات التي تغزو المدينة حالياً.